نـافـذة

الجاذبية الجنسية

توافقت مع الجاذبية الأرضية التي تطابقت معها إلى درجة الإذهال، ومن دونها لما كان للحياة نكهة، أو طعم، أو حتى معنى أو وجود، وبدء العلاقة بعدما دبَّ في عروق الأرض ماؤها، وتربعت النجوم على وجه السماء، حيث أضاءتها، وتحرك بينهما الشمس والقمر، تعرفت البشرية بشكل أو بآخر على الجمال القادم من الإغراء والإغواء والفتنة المتجلية من خلال هذا التواجد الذي أنجز بفضل العقل العلمي الكلي المحيط السرمدي، ليس فقط جنسنا، وإنما على صورة كامل الأحياء؛ نبات وجماد وحيوان، وتوافر جمال الأنوثة، وجرأة الذكورة، وتطور فنون وجودة وصناعة الجمال، ومحاولات جمع الفتنة والجرأة في كل من الذكر والأنثى، والتخلي عن الإبطاء في العمل لأجله، وجاذبية تأثره التي تنجح وتفشل، تلتهب وتخبو ضمن مجتمعات الأنسنة، أدواتها ترقق الأصوات المثيرة للعواطف والمسير المثير القادم من الألايا المحركة للشهوة، بحكم الاهتزاز التوءمي، والصدور الناهدة، والشفاه المغرية، والعيون الداعجة، والخصور الكاشحة، والعرانين حوامل الشمم، والإصرار على الوصول للمبتغى، من خلال تبختر الذكور، وتجمّل الإناث، وتألق الخصوبة، والتفاؤل بأن يكون كل ذلك من ميزات فكر الحياة، ففيه الهدف والبحث الدائم المنشود تحت عنواننا، إنما يتعلق بالبحث عن روح الحب وتجاوب الشخصية في الطرفين، وعناصر الذكاء التي تعلن بشكل صارخ عن حضورها! من يقدر على تفسير النظرات الحالمة، وأن يجعل من الصمت كلاماً بليغاً فصيحاً غير الجمال، كيف يظهر العمل متطابقاً مع إرادتك التي يحتاجها الآخر؟ كيف تُزال الشكوك والمخاوف من قسمات الوجوه في حضور الجمال؟ عليك أن تنسى حتى اسمك، وأن تدع سرائرك تُرسم من عينيك، لأن اللحظة تكشف للحضور الجمال وكل خباياه، فمن يلتقطه القلب يتظاهر بمنحك القدرة على الاختيار، أما الجاذبية التي تأمرك بالطاعة الكلية فتنهي جميع حوارات الاختيار، هلّا تفكرتم بالرغبات واللذات التي تتجيّش في حالة من الهيام التي ترمي بأشد المحاربين بأساً وأسرعهم إشهاراً للسيوف في أحضان الحب الذي لا يعترف بالرحمة، ولا بالشكوى من التعب أو الضجر من أنينه.

أليست الحياة في مجملها جاذبية جنسية، تقدمت جداً بفعل الجمال الكوني المنتشر أينما تجول البصر وإبهار مكونه الذي أراد من مخلوقه أن يجسد فيه فكره الكوني، ماذا يعني الحب والفلسفة التي لا تعني التفلسف، وأنك لحظة أن تجلس على الكرسي، والكرسي على الأرض يعني أن الجاذبية هي الرابط بينك وبين الكرسي والأرض والكرة، ألا يمثل حالة انفلات الجاذبية وخروجها من حالة التوازن إلى فقده؟ ومن ثمَّ فقدان الوزن ونشوء الهوات التي تعطي فرصاً للانفلات اللاأخلاقي، وظهور الحروب والقتل والتدمير وكل ما يتخيله العقل. كنت قد مررت في إحدى مقالاتي بجمل عنها، الآن أحاول أن أستعرض بعضاً منها، أسئلة أدع لكم الإجابة عنها، لماذا كل شيء في هذه الحياة متعلق بثنائية لا ثالث لها، إنما هذا الثالث هو منتجها الإيمان والأديان، أليس الإيمان روح الحقيقة؟ والأديان غرائز نتعلق بها، دخلنا عليها بأشكال لا إرادية، الذكر والأنثى وحاجتهما للتداخل الذي من دونه لا استمرار، السماء والأرض، الشمس والقمر، القفل والمفتاح، الليل والنهار، ضمن عملية إيلاج نادرة تتشابه تماماً مع المد والجزر، وبذار الأرض والغرس في ترابها والنساء والحرث فيها، كل أمر يحتاج إلى دخول، لا بد أن يكون له خروج، تفكروا في عملية إدخال الطعام إلى الفم والشراب كذلك، ودخولك إلى ملابسك والأقدام وعلاقتها مع الأحذية وركوب الوسائط جميعها، وشبك الأيدي والسمع والنظر واللمس والشم، ماذا يجذب كل ذلك؟ لماذا وكيف ومن أجل ماذا، أليس من أجل ظهور الحياة واستمرارها؟

جاذبية الأرض الأنثى أمسكت بالموجودات مطلقة منها جاذبية أجناسها لبعضهم، وولدت لهم غرائزها، منحتها قوة الروح بإدهاش وإبداع لا يمكن تصوره، ويمكننا بالبحث المعمق فيه مع عزة الذات المنسابة في عروق الأحياء وسمو وجودي خارق، يهز الحركة الكونية ويوقظها من جاذبية الشهوة، والشر يدعوها إلى عالم الحب، كما يدعو الربيع قلب الكون إلى عالم البهجة والفرح والنور، كل هذا يأخذ بنا إلى عالم من الإذهال، يؤسس إلى حضور الصراع بين القوة والضعف، بين العقل والقلب، بين الهدوء والعنف، بين الحكمة والغريزة، ويتم عندما تحضر وتهيمن وتغدو واقعاً، أي الجاذبية الجنسية تبادل المراكز وانتقالها بين الذكر والأنثى، فالقوة هو تغدو هي، والعقل هي يصبح هو، والهدوء يتحول ويتجول بين العنف المحبب والمجون السري، حيث لا يريد أيٌّ منهما أن يفضح ما حصل، وإذا حصل الخصام، وظهر اللؤم، ودبت القطيعة، نجد تحركاً سريعاً للشيطان حين ذلك، ويفعل ما لم يكن في الحسبان، هل من أحد استطاع السير في هذه الحياة بلا قلب؟ مؤكد لا، وهذا يعني لنا أنه التقى مع الحب القادم من تلك النظرات الباحثة والساحرة والفتاكة في آن.

كيف بنا لا نسقط ونحن نخترق عباب الفضاء، ونخوض البحار، نقطع المسافات، نتعلق بالأرض، كما كنا نتعلق بأثداء الأمهات.

إنه جنسنا الغريزي المتشابه مع كامل الأجناس الحية، مع فارق بسيط ومهم أنه يتحكم بغريزته، يقودها بوعيه الخير أو الشرير، وما سرت إليه تحت عنواني هو الإشارة إلى التفكر في هذا الجين، وأهميته المسكونة في الإنسان، لأنه في باقي الأجناس الخطيئة الأولى هي الأخيرة والقاضية، ولا اعتراف لديها، أما في جنسنا، فإننا نعترف بأخطائنا الهيّنة ونبررها بالقوة أو بالضعف، ونتحدث عنها بغاية إسكانها في أذهان بعضنا، إنها ليست ذات بال، أما الكبيرة والفتاكة منها، فهي المسيطرة وتتحكم بجميع المواقف.

نتحدث نحن الجنس البشري عن الأجناس الأخرى بأنها غريزية، وفي حقيقة الأمر، إن كل ما نقوم به إنما يدل على غريزتنا النهمة لكل شيء، والتهامنا الكامل تلك الغرائز الحيوانية والنباتية، ونهبنا لمكونات الأرض يرينا الغريزية العالية التي لا مثيل عند أي جنس آخر لها، فالحيوان يقتل بغريزة الجوع، والإنسان يقتل بغريزة الشبع، والحاجة المستمرة لمراكمة المزيد وعدم قدرته على إيقاف لغة أريد، ليثبت لنا أننا نحن أقفال الحياة، والأجناس الأخرى مفاتيح لنا؛ أي من أجل حياتنا ومن دونها لا حياة.

د. نبيل طعمة

أتساءل اليوم: ما مشروعنا الثقافي في خضمّ الهجمة المذهبيّة الأعرابيّة؟

عبد الكريم الناعم لـ«الوطن»: قصيدة النثر اليوم كالرّكام المُتنامي وكيفما قلّبت حجراً تجد كاتباً لها

| عامر فؤاد عامر

يضفي بنضوج قصيدته ثباتاً للشعر المعاصر، ويمنح بتماسك إيقاع ما يكتبه الثقة لمتذوقي ومحبّي الشعر، فبداياته الأولى كانت في أواخر خمسينيات القرن الماضي وديوانه الأول «زهر النار» صدر في العام ١٩٦٥، ليكتب بالتوازي بين العمودي والتفعيلة، فتكتسب تجربته ديمومتها في التميّز، والتفرّد، والبحث عن الاختلاف، فنجد عناوين كثيرة في ٢٨ مؤلفاً نذكر منها: حصاد الشمس ١٩٧٢، وعنود ١٩٨١، ومائدة الفحم ٢٠٠١، وحريق الحانة ٢٠٠٨، والرحيل والصوت البدوي ١٩٧٥، ومن ذاكرة النهر، وغيرها. له كتابان في النقد الشعري والتنظيري والتحليلي: في أقانيم الشعر ١٩٩١، وكشوفات ١٩٩٣. الشاعر والأديب «عبد الكريم الناعم» المولود في العام ١٩٣٥ شاعر الحداثة المعاصر، يزيدنا اليوم من عطاءاته، ويخبرنا عن إصداراته الأخيرة وتعليقه في كتاب «ليس شعراً»، وعن القادم منها «قريباً لأقمار الوقت». ويتحدّث أيضاً عن موقع الشاعر اليوم في مجتمعنا، وعن قصيدة النثر وانتشارها، ومتابعته لأجيال الشعر، وعن استقراره في حمص، وعن وزارة الثقافة واتحاد الكتاب العرب، وهذه هي مواضيع حوارنا معه.

- ما موقع الشاعر في مجتمعنا اليوم، وأنت صاحب التاريخ الشعري، والعطاء الجميل، ويحقّ لمن يحمل هذه التجربة أن يقدّر تلك القيمة؟

لا شكّ أن الشعر عامّة له مكانة تقدير واحترام في مجتمعنا، الذي يحمل في أعماقه أبعاداً سحيقة، قد يعود بعضها إلى الأساطير، وإلى شاعر القبيلة، فهو يحسّ بها، أو يقترب منها، ولا يعرفها، ولكنّ مكانة الشاعر بصورة عامّة في بلداننا العربيّة، غالباً، ما يصنعها سلوكه، وتوجّهه، ومجتمعاتنا العربيّة لا تزال تتعامل بسلبيّة وبسطحيّة مع الثقافة ككلّ، فماذا يكون حال الشعر الذي، حين يكون شعراً، هو اللّبّ؟! وممّا يؤسف له أن التفسّخ الاستهلاكي، وفقدان الأخلاقيّة المُبدعة في واقعنا قد انعكسا على كلّ المستويات، ومنها المستويات التي يُفترَض فيها أن تُقدّر الشعر والشاعر، وأن تهتمّ به، ولا بدّ من الإشارة إلى أن جوهر الشعر هو فنّ نخبويّ بطريقة ما. في هذا البرد القارس خذْ ديواناً من عندي وأعطني برميل (مازوت).

- كيف يمكن للشاعر أن يكون مختلفاً ولا يُشبه الآخرين؟

هذا مطمح كلّ شاعر حقيقيّ، ومن الشعراء مَن حقّقه ومنهم مَن ظلّ بعيداً عن هذا الهدف، والاختلاف، كما فهمتُه هو في التّحليق الشعري، وفي ارتياد آفاق جديدة، عبر أدوات الشعر المعبّرة، لقد توهّم البعض أن هذا يتحقّق في الإغراق في الغرابات المُبهَمة، أو في ابتكار ما يكفي للتمييز، أمّا الاختلاف الذي أعنيه، فهو متعلّق بآفاق «الشعريّة» و«الشاعريّة»، وإذا كانت الشعريّة ممّا يمكن ترتيبه، ورصْفه، بل حتى افتعاله بشيء من الحذق الأدبيّ، فإن «الشاعريّة» هي تلك النّفحة الموهوبة لنا داخليّاً، مستفيدة من التجارب، والقراءات، والمسافرات الواسعة نحو الداخل الفسيح، والذي لا يمتلك تلك الموهبة سيظلّ، غالباً، يهوّم حول السفح، (الاختلاف بإبداع) يظلّ أحد المطامح العالية لجميع الشعراء، ومساحة الوصول إليه لا تضيّقه، فهو يتّسع برحابة لكلّ من حملتْه أجنحته إلى تلك الشواسع.

> جوهر الشعر هو فنّ نخبويّ بطريقةٍ ما

- في كتاب لك صدر مؤخراً بعنوان «ليس شعراً» يصرّ البعض على أنّه إطلالة على قصيدة النّثر، فما تعقيبك؟

الطريف في هذا الكتاب أنه حُمّل شيئاً من التناقض، لم أرده، فقد أردت أن يكون عنوانُه مفتاحه، فأنا أقول أنه ليس شعراً، وقد أعطيته هذا العنوان، ليحمل دلالة ضمنيّة، ورسالة غير مباشرة، ولكنّهم في مطابع الوزارة، أو في المطبخ الذي يُطبخ فيه النشر وضعوا على الغلاف مفردة «شعر» فحمّلوني تناقضاً لست مسؤولاً عنه. كان لهذا الكتاب هدفان:

الأوّل هو أعطني ما يشوّق، وما يثير المكامن الرّهيفة، واكتب بأي صيغة شئت.

الثاني إعلان بأنني ما زلت متمسّكا بقيمة الإيقاع الجماليّة والتعبيريّة والنفسيّة، وأن الإيقاع جزء أساسي في البنيّة الشعريّة، ولا يتأذينّ أحد ممّن لا يستطيعون كتابة الشعر الإيقاعي، ولا يخرجنّ علينا من يقول بالإيقاع الداخليّ، الذي لا يُسمع إلا بالأذن الداخليّة، فقد أشبعت هذه المسائل بحثاً، وتفنيداً، في كتابي «في أقانيم الشعر» الصادر عن دار الذاكرة بحمص عام ١٩٩١، والذي لم يحظ بتوزيع مناسب، وقد قال عنه الشاعر والناقد واليمني د. عبد العزيز المقالح، حين وصله إنه من أهم عشرة كتب صدرت في السنوات الأخيرة.

أنا منحاز لجماليّات الإيقاع، وأردت أن أقول إن أي شاعر يجيد كتابة الشعر الإيقاعي بأوزانه القوميّة، كما يسمّيها د. إبراهيم أنيس، يستطيع أن يكتب قصيدة النثر، أمّا الذي لم يُرزَق تلك الموهبة فلا يستطيع كتابة إلا المنثور، على جلالة قدر بعض ما يُكتب فيه.

- هل تتابع الأجيال الشعريّة؟ بماذا تنصحهم؟ وكيف يمكن أن ينهضوا؟

لستُ في مقام النّاصح، ولا أريد أن أكون (أستاذاً) في هذا المجال، ففي الأجيال الشعريّة التي عنيتَها ثمّة من يتجاوز العديد من الأسماء التي ترسّخت بحكم الزمن والعطاء، والأكثرية، للأسف، تَغرق في تهويمات من الخواطر، والتّركيبات الأدبيّة، الخالية من (الرّوح) وتسمّي ذلك شعراً!! أعتقد أن هذا الرّكام المُتنامي الذي يُطلقون عليه اسم الشعر لن يبقى منه شيء، وسيظلّ الأصيل الأصيل، ولعلّ فاعليّة تلك الجرثومة كانت أكثر فتكاً بكتاب «قصيدة النثر»، كيفما قلّبت حجراً تجد كاتب قصيدة نثر، وكثيرون منهم وجدوا مَن يستقبلهم في بعض المنابر الثقافيّة، وكما يقول المثل: «اللّي ما يعرف الصّقر يشويه»، فمعظم القيّمين على تلك المنابر ليسوا أكثر معرفة بالإبداع من الذين يصعَدون، أو يُصعّدون. بالمناسبة أنا أستفيد من الأجيال التي تلتني فيما تُبدعه من شعر متألّق، وقد تشكّل حافزاً لي، لكنْ... لابدّ من الإشارة المهمة إلى أنّ معظم هذا الجيل الذي سألتَني عنه، منبتّ الجذور، فهم لم يقرؤوا الشعر العذري، ولا المتنبّي، ولا أبو فراس الحمداني، ولا الشريف الرضي، والزّرع الذي لا جذور له تقتلعه أيّ هبّة ريح، ولعلّ ما نطلبه من الصعوبة في مكان، فالعصر، للأسف، عصر الموبايل الذكيّ، وصفحات الانترنيت، فكيف تتشكّل من هذه البضاعة التّالفة نواتج ذات قيمة!!

- كيف العلاقة اليوم بين حمص موطنك الأصلي ودمشق بوّابة كلّ المثقفين؟ هل هناك بعد في الحراك الثقافي، وأنت مستقرّ في حمص؟

لا أظنّ أنني مؤهّل الآن لإصدار حكم في هذا الحراك، فأنا منذ أن ابتدأت الحرائق ما أكاد أغادر البيت إلا للضرورات التي لا بدّ منها، ولا أستطيع مواكبة النشاطات الثقافيّة، فالبرد شديد، وأنا أضعف شيئاً فشيئا، ولكنني أتابع عن طريق الفيسبوك، وعن طريق بعض الأصدقاء أهم هذه النشاطات، وأقول إن المسألة ليست في التواصل الرّوتيني بين أهم مؤسّستين ثقافيتين، وهما اتّحاد الكتاب العرب، والمركز الثقافي، فالتّواصل قائم، ولكنْ الأهمّ من هذا كلّه ما مشروعنا الثقافي في خضمّ هذه الهجمة المذهبيّة الأعرابيّة؟ ماذا عن الإبداعات التي تخدم التقدّم، والصمود، وتصنع المستقبل؟ ماذا عن مناهجنا في المدارس، التي تحتاج إلى تنظيف وتعقيم؟!! ماذا عن كلّ ما يساهم في التنوير وإزاحة أسداف ظلمات المذهب والطائفة، وما ابتُلينا به من فتاوى ضالّة مضلّة وثمّة مَن يأخذ بها حتى الآن؟!! هذا كلّه ثقافة.

ثمّة نشاطات (أهليّة) ثقافيّة يقوم بها البعض بتمويل ذاتي، وبجهود صداقاتي، وهم مشكورون على ذلك كـ«مدى» و«خوابي» في حمص.

أتمنّى على وزارة الثقافة أن تقيم ندوة في كلّ محافظة تجتمع فيها بأدباء ومفكّري كلّ مدينة، وتثير معهم مثل هذه المواضيع للاستماع إلى الاقتراحات في حقولها وليس بعيداً عنها، وستخرج بحصيلة أظنّ أنها ستكون مفيدة، وترسم طريقاً للخروج من المأزق الثقافي.

- هل من عتب على وزارة الثقافة؟

بداية لا أستطيع إلا أن أقدّم خالص الامتنان والشكر لوزارة الثقافة واتّحاد الكتاب العرب، فأنا لولاهما لما استطعت طباعة هذا الكمّ من الكتب لأنّني لا أملك المال، فلقد صدر لي حتى الآن تسعة وعشرون كتاباً، لم أطبع واحداً منها على نفقتي، وقد شرحت العذر، ومن هذه الكتب ثمانية من إصدار الوزارة، ومن هنا ينبع هذا الشكر، وهذا لا يخصّني وحدي بل يخص الأدباء والكتّاب، والأجيال الأدبيّة المتتالية في سوريّة، ثمّة عتب في تكريم الذين يُكرّمون، فأدباء المحافظات يكادون يغيبون عن هذا المشهد إلا قليلا، وأعتقد أن الحركة الأدبيّة في سوريّة لا ينهض بها المقيمون في العاصمة فقط، ولست أنكر الدور القياديّ في ذلك، ولا أدعو إلى مصادرته، ولكنْ إلى تصويبه وجعْله ينظر في جميع الاتّجاهات، لا في جهة الأصدقاء والمعارف والمقرّبين...

- كيف علاقتك اليوم مع اتحاد الكتاب العرب؟

علاقتي كما حدّدها قانون التقاعد (الظالم)، ورغم أنني أشكر للاتحاد أنه أول اتحاد كتّاب يدفع راتباً تقاعديّاً، فإن فيه الكثير ممّا تجب مراجعته، ولقد أشار إلى هذه النّاحية رئيس الاتحاد الحالي د. نضال الصالح، في كلمة قدّمها في مهرجان الشعر الذي أقيم في مكتبة الأسد، بمناسبة معرض الكتاب ٢٠١٧ وقال ما معناه إنه حاول أن يصحّح ذلك الجَنَف، ولكنّه وُوجه بجدار من الرافضين، فله شرف المحاولة، ولقد كتبتُ الكثير في هذا المجال، وفصّلت، وأرجو أن يأتي يوم يتخلّص فيه الاتّحاد ممّا يرفع (بعض) الظلم عن الأدباء والكتاب المتقاعدين.

علاقتي بالاتحاد جيّدة، علاقة صداقة مع كلّ من يعمل في تلك المؤسّسة، ممّن جمعتْنا بهم الأيام، وأتمنى له مزيداً من النجاح، والتخلّص من كلّ ما يعوق تفتّحه، ويُعرقل خطوات مراحله.

- هل تحضّر لطباعة ديوان جديد، وما جديدك الشعري؟

أنا لا أحضّر، فلديّ الآن أكثر من مجموعة جاهزة، وأبحث عن إلى أين أرسلها، وأحدث قصائدي التي كتبتُها في ظروف أزمة حريق البلد، موجودة في وزارة الثقافة، وتنتظر التصحيح الأخير، واسمها «لأقمار الوقت»، وإذا حدث بعض التقصير مني (بالنيابة) عمّن قصّر في هذا التصحيح، لظروف خارجة عن إرادتي، فإنّني أعود وأذكر أن هذه المجموعة بقيت ثمانية أشهر لدى أحد قرّاء الشعر!!، ولقد كتبت في ذلك، وعسى أن تتخلّص الهيئة العامة السوريّة للكتاب، في وزارة الثقافة عن أمثال هذا القارىء.

تعقيب

تحدث الشاعر عبد الكريم الناعم عن التكريم وعتب، والتكريم الذي تحدث عنه شمل شخصيات من مختلف المحافظات، وعدد منهم غير مقيم بدمشق، ولم يكرم من شخصيات العاصمة سوى شخصيتين.. اقتضى التنويه.

النهضوي الزهراوي ورحلة تحقيق الشخصية العربية

شاع لدى الناس أن السياسة مبنية على الكذب

| سارة سلامة

في إطار منهجها المعتمد في تسليط الضوء على الأعلام والمبدعين في تاريخ سورية تصدر وزارة الثقافة والهيئة السورية للكتاب بشكل شهري سلسلة من شأنها الإضاءة على شخصية وعلم من الأعلام، واليوم يضع بين أيدينا الكاتب خليل البيطار كتاباً جاء بعنوان «النهضوي الزهراوي»، ومشروع استقلال سورية «١٨٧١–١٩١٦م».

وتساءل البيطار في مدخل الكتاب «لماذا نعود إلى مشروع الزهراوي بعد مرور قرن ونيف؟ لجدواه وراهنيته؟ أم لجلال مقصده، بأن الاستقلال والتحرر والسيادة لا تعطى، بل تنتزع بوحدة الشعب وتضحياته بمستوياتها كلها، وأعلاها الاستشهاد؟

سيرة الزهراويّ

هو عبد الحميد محمد شاكر إبراهيم الزهراوي، من مواليد مدينة حمص عام ١٨٧١م، وأسرته ذات نسبٍ يتّصل بالإمام الحسين بن علي وفاطمة الزهراء.

درس في المدرسة الرشدية بحمص، وأتقن اللغتين العربية والتركية، وكان نابهاً بين أقرانه، ودرس الأدب العربي علي يد الشيخ مصطفى الترك، ودرس الفقه الحنفيّ على يد الشيخ حسن الخوجة، وأحاط بعلوم الحديث والتفسير على يد الشيخ عبد الساتر الأتاسي، محدث زمانه، كما أقرأ الأصول والأحكام الشرعية على يد الشيخ عبد الباقي الأفغاني، وكان واسع المطالعة في كل فن. ودراسته على يد خيرة مشايخ حمص أوجدت لديه حافزاً، لأن يحمل مسؤولية ثقافية قومية، وينهض بها.

سافر إلى الآستانة، للتعرف إلى معالم مركز السلطنة، وانتقل بعد ذلك إلى مصر، حيث العديد من الأسر التجارية والثقافية السورية واللبنانية المبتعدة عن ملاحقات شرطة الولاة العثمانيين ومعظم هذه الأسر تربطها صداقة بأسرته، ونزل في دار نقيب الأشراف توفيق البكري، وجالس عدداً من الأدباء والفقهاء، وحاورهم ببراعة، وحظي بإعجابهم ومودتهم، ثم عاد إلى حمص.

الصحفي المخضرم

كتب الزهراوي مقالات كثيرة في عدد من الدوريات العلنية الصادرة في كل من الآستانة والقاهرة وحماة، وحاور شخصيات سياسية وثقافية، وأعيد نشر عدد من مقالاته لأهميتها، ولاقت مقالاته قبولاً عند القرّاء، وقد حرّر في الصحف والمجلات التالية: المؤيد، الجريدة، الزهور، لسان العرب، ثمرات الفنون، مجلة المنار وجريدة الحضارة التي أسسها بنفسه، وصدرت أسبوعية عام ١٩١٠م في الآستانة وجعل شعارها «قل ما تعتقده الحق، وتظنه الأصلح من الآراء والأصدق والأصح من الأنباء»، وساعده في تحريرها تلميذه ورفيق دربه في قول الكلمة الجريئة رفيق رزق سلوم، وقد نال مثله شرف الاستشهاد على أرجوحة الشرف، وتركزت مقالاتها في الدفاع عن الحقوق العربية، والدعوة إلى مساواة الجميع في الوطن، وقد أوقفت الجريدة عن الصدور عام ١٩١٢م بأمر سلطاني.

وهذه مقتطفات مما حرره الزهراوي من مقالات في صحيفة «الجريدة» الصادرة في القاهرة».

الصدق والكذب في السياسة

إن اللسان هو أعظم وسائط السياسة، وذلك أن كل شيء من الشؤون الاجتماعية للإنسان يدور على محور البيان، فالسعادة بهذا النطق منوطةٌ، والبلاء موكل بالمنطق.

وقد شاع لدى الناس أن الكذب في السياسة غير منفورٍ، أو إن السياسة مبنية على الكذب، وأن نجاحها به. وسبب ذلك أن أكثر الناس يبنون أحكامهم في الأغلب على حادثة، أو بضع حوادث، يشاهدون منها الظواهر، وقلّما يبدو لهم منها الغوامض وينسون في الأكثر ما يشهد من الحوادث الأخرى الكثيرة لضد ما استنتجوه من هذه الحوادث القليلة.

والحقيقة أن الكذب لأجل المنافع العموميّة لم يكن أساساً للسياسة الناجحة يوماً من الأيام، بل ما زال منفوراً من جهتها، كما هو منفور من كل الجهات.

شاعرية الزهراوي

كتب الزهراوي قصائد عديدة، لم تجمع في كتاب مستقل، تناول فيها موضوعات فكرية وفلسفية وتأملية، ورثى فضلاء زمنه، تميز أسلوبه فيها بالطلاوة وعذوبة الإيقاع، وحسن التصوير، وجزالة الألفاظ بعيداً عن التكلف والإطالة.

وفي هذه القصيدة رثى الشيخ الإمام المتنور محمد عبده، أرسلها معزياً إلى الشيخ محمد رشيد رضا برحيل العلامة والمصلح الكبير، قال فيها:

نعى البرق شيخ العصر فاستحوذت ظلما وأرعدت الألباب إذ أمطرت غما

توارى بحجب الغيب عنا محمد إمام الهدى السامي بحكمته العظمى

محمد لا نأسى لفقد سناك بل سناؤك باق بيننا يكشف الظلما

البرلماني الجريء

ركز الزهراوي بعد انتخابه نائباً عن ولاية حماة على الأهداف الآتية:

توحيد القوى للدفاع عن الدستور، ومقاومة محاولات السلطان عبد الحميد لوأد الحركة الدستورية الوليدة.

الوقوف في وجه حزب الاتحاد والترقي.

الدفاع عن مشروع الإصلاح العام، ونقد التأخر والجمود والتقليد الأعمى.

الدفاع عن حقوق العرب ومساواتهم مع قاطني أراضي السلطنة، ولم يكتف الزهراوي بنشر مقالات في الصحف بل انتخب كي يمثلهم في مجلس «المبعوثان»، العثماني آنذاك، وكان صوته الأجرأ في طرح المطالب المحقة للولايات العربية من بين ممثليها العرب، وأظهر حرصاً على إصلاح الإدارات، ومواجهة الفساد المتفشي، واستغلال السلطة للأغراض الخاصة.

الشهيد السعيد

لم يكن صبح السادس من أيار عام ١٩١٦م، شبيهاً بالصباحات التي سبقته، لأن أصوات رموز الأمة، ودعاة استقلالها، وصورهم على أعواد المشانق هزت وجدان السوريين واللبنانيين والعرب جميعاً، وكشفت خداع الحكومة السلطانية وأطماعها، وهيأت لتفجر الثورة العربية الكبرى التي أعلن انطلاقتها الشريف حسين في ١٠ حزيران عام ١٩١٦م، أي بعد شهر من جريمة السفاح العثماني جمال باشا.

ومما ذكره الشيخ محمد رضا في فضائل الزهراوي قوله «كان الشهيد السعيد نابغة من نوابغ السوريين، ما عرفت بلاده كنهه، ولا قدّرته قدره، على أنها لم تقتصر في تعظيمه، وفي الاحتفال له والحفاوة به أيام سفره، وأيام قدومه، إذ عرف الجمهور منه في أواخر سنيّ حياته كما كان يعرف الآحاد، إنه أحد أشراف البلاد المنصرفين لخدمة الأمة بكفاءةٍ واستعداد».

مكانة الزهراوي

تأثير الزهراوي الشيخ المستنير، والنهضوي الرائد والإعلامي الجريء، في الأجيال التي دحرت العثمانيين، وقاومت الفرنسيين في ميسلون وجبال اللاذقية، وغوطتي دمشق وفي سائر أرجاء سورية عبر ثورات وانتفاضات وإضرابات، غرّتها الثورة السورية الكبرى التي وحدت الشعب كله ضد الغزاة الفرنسيين، وأجلتهم عن التراب السوري الغالي، وتأثيره في الأجيال التي عاصرت الاستقلال، وفرحت لجلاء المحتلين الفرنسيين في١٧ نيسان عام ١٩٤٦م، ونعمت بثمراته الطيبة، وفي الأجيال التي دخلت القرن الحالي «قرن النكبات والكوارث»، كبير، لأنه لفت الانتباه إلى المحطات المضيئة في التراث العربي والإسلامي والمشرقي والعالمي، وأكد أن هذه المحطات الزاهية الحضارية محفزة، وهي ليست للتغني والاستعراض البائس، والجيل الناهض المعاصر مدعوّ إلى أن يبني عليها، ويضيف إليها ما يفيد مجتمعه، وينفع الإنسانية كلها.